على هامش

إصلاح الطرق الصوفية

للأستاذ محمد على الطعمى

واعظ مركز نجع حمادى

أخذت يد الإصلاح تتناول الطرق الصوفية — وتشخص الداء وتضع عليه الدواء ، فقد مضى عليها حين من الدهر ، والزوابع والغشاوات تنتابها وتجثم على صدرها ، وتكيد لها كيدا حتى أوشكت أن تنهار إلى أن قيض الله لها رجلا من رجالات الفكر المستنيرين ، وصوفيا من الطراز الأول وعلما يزخر بالتقوى ويؤمن بالتقدم ويرى العودة بالطرق إلى عهدها الأول ضرورة يجب أن تكون لكيلا يجد الغمازون واللمازون مندوحة للنقد والتجريح ، وفعلا قام سماحة السيد الأستاذ محمد محمود علوان من أول يوم اعتلى فيه مشيخة الطرق الصوفية قام بدور إيجابى فعال ، فعقد المجتمعات والندوات ، وفتش عن عيوب الطرق ونادى فيها بالإصلاح الشامل السريع الذى لا يعرف التعويق والتردد ، وكان لقوله رنين وهدف ، ولنشراته وتصريحاته إصغاء وإعجاب ، ومجلة الإسلام والتصوف التى لقيت ترحيبا منقطع النظير فى الأوساط العلمية والأدبية ، والتى كان لها مجهود مشكور لعل أكبر شاهد على عبقرية الشيخ ونضوجه الفكرى والعلمى والإصلاحى .

ولا ننسى أبناء الطرق فى مختلف البلاد — فانهم يحمدون لسماحته رعايته وعنايته وسهره المتواصل فى سبيل تحقيق أمنيته وأمنيتهم التى تهدف إلى العلو والسمو والتطهير .

وانه لمن حسن الطالع ، وجميل الصدف ، أن يكون إصلاح الطرق الصوفية فى عهد الثورة المباركة التى فتحت القرائح وفتقت الأذهان ، ونادت بالعمل المثمر المنتج الصاعد فى جميع مرافق الحياة ، وفى الوقت نفسه قضت على كل ألوان الفساد والاستبداد والخنوع والخضوع لتكون الحرية لكل مواطن عربى ، وتكون العزة لله ولرسوله وللعاملين ، وذلك بفضل بطل العروبة ومحررها الرئيس جمال عبد الناصر .

فالخير كل الخير للسالكين مقام التصوف أن يصغوا للنداءات المتكررة وأن يتجاوبوا مع هذه الموجة التحررية التى تهدف إلى التماسك والنهوض ونبذ الخمول والجمود — فقد أصبحت الحياة رحبة فسيحة مفيدة تدعو إلى المسارعة والكفاح ، ونداءات مشيخة التصوف تبغى بها إصلاح الطرق نفسها ليقوى جهازها وتصبح ريحانة فى جبين الزمان . ثم إن كلام الدكتور مصطفى كمال وصفى الذى جاء تحت عنوان إصلاح الطرق الصوفية بالعدد السابق من هذه المجلة أعجبنى جداً وأحب أن أقتطف منه ما يلى :

« ليس من العار أن تكون بى بعض المعايب فأى الناس تصفو مشاربه ؟؟ ولكن العار هو أن تأخذنى العزة بالإثم ، وأن أتكبر وأزعم أننى لا عيب فى — مع أن عيبى ظاهر يراه الكافة ، وربما كان الشعور بالنقص هو أول درجات الكمال والاشارة بالعيب هو أول خطوات الاتجاه إلى الاصلاح ، ولذلك فتشخيص الداء ضرورى للاصلاح .. كلام قيم رصين ، فيه تجارب يجب ألا تمر على رواد التصوف مر الكرام ، ويجب أن نستلهم منها الموعظة ونفتش فى قرارة أنفسنا عن العيوب المتأصلة المزمنة التى تحمل الميكروب ، وعندما يحس الصوفى بالنقص الخفى فيه يستطيع أن يتلافاه وأن يكمله وعندئذ تبدأ مراحل الكمال .

ويستطيع الدكتور المستشار مصطفى وصفى أن يتوسع فى موضوع اصلاح الطرق الصوفية ، وأن يتكلم فيه على المكشوف ، فلديه الخبرة والتجربة والعارف لا يعرف ، وبذلك يسدى خدمة جليلة للتصوف الاسلامى الذى كثر فيه الدجاجلة وطرق سبيله الدخلاء الأغبياء حتى شوهوا رسمه وضيعوا شكله وجعلوه جبهة متواكلة رخوة تستحق الهجوم والتشنيع .. والتصوف من هذا براء .. ؟

هذا الجنيد أستاذ تلك الطائفة يضع دستوراً محدداً للتصوف يقول فيه : « طريقتنا مبنية على الكتاب والسنة » ويقول « من لم يحفظ القرآن فليس على طريقتنا » فلو لم يكن دستور للتصوف غير هذا لكفى . والمتفرس المدقق فى هذا البرنامج يجد أن أصول الطرق وفروعها بنيت على ما ورد فى الكتاب والسنة ، ويجد أنها روحة وارفة نابعة من هذا الغدير الصافى الرقراق ، المتدفق من ينابيع النورانية العظمى .

ومما لا شك فيه أن الدسوقى علم من أعلام التصوف ، ورجل ضرب بباع وافر فى ميادينه ، وكانت له شطحات ونفحات .. أنظر إليه يقول : « نحن قوم نطعم ولا نطعم ونعطى ولا نعطى » .

وهذه حاسية تضرب الرقم القياسى فى عزة النفس ، والتعالى بالمتصوف إلى ساحة الكمال ، وجعله الطاعم الكاسى .

ومع هذا نحن بصدد واحد هو محاربة الكسالى والنفعيين والأدعياء الذين لا عمل لهم إلا طقطقة المسابح وتوسيع الملابس ، وتزويق المظاهر زاعمين أنهم من رجال الله الأخيار ، وما دروا أنهم بهذا عطلوا ما أمر الله به أن يكون من عمارة الأرض وتنمية المال ، وتسخير المسخرات التى بثها الله فى البر والبحر والجو ، وبذلك تصبح الحياة خلواً من الكدح والنشاط والحركة خلوا من الكدح والسبح والترق ، وفى هذا بلاء مبين واستهتار بنعم الله .

هزتنى نملة فى يوم ما ، فقد رأيتها حاملة فتيتة من خبز على ظهرها أكبر من جسمها ، ويبدو أنها أرهقتها أثناء السير ، فكانت تضعها عن كاهلها وتستريح ، ثم تستأنف حملها من جديد حتى وصلت بها إلى مسكنها .

فالنمل يسعى ويتحرك ويناضل فى سبيل لقمة العيش ، ويدخر من طعام الصيف قوت الشتاء ، ولله فى خلقه شئون .

وانه ليسر كل مسلم أن تهتم يد الإصلاح بتنظيم الطرق الصوفية وأن توجههم الوجهة اللائقة التى ترفع من مركز التصوف ، وتجعله ينهض بالثقافة ويرتقى بالوعى والعلم ليعود إليه مجده الأول .. وطلاب التصوف جميعا لديهم الاستعداد الكافى وسيقبلون نصائح السادة الموجهين بالشكران والرضا والقبول ، لأن فيها نفعا عاما يعود عليهم بالسؤدد والرفعة والاحترام . .

فما لى هؤلاء وهؤلاء أذيع عظيم التحيات وبالغ التشكرات ؟

محمد على الطحنى

واعظ مركز نجع حمادى